المحاضرة (3): اللّسانيات العربيّة: التّطوّر:

تمهيد: عرفت الدّراسات اللّغويّة في الحضارة العربيّة بعد الفتوحات الإسلامية واتّساع رقعة الدّولة الإسلاميّة تطورا ملحوظا، عرفت من خلاله تأسيس عدة علوم لغويّة، أهمّها: التّأليف النّحويّ، والصّناعة المعجميَّة، وعلم الأصوات، وفقه اللّغة، والبلاغة العربيّة، وأصول النّحو، وقد عرفت الدّراسات اللّغويّة في الحضارة العربيّة، أرقى مراحل تطوّرها في العصر العباسيّ الأوّل، مع هارون الرّشيد والمأمون اللّذين شجعا التّأليف والتّرجمة.

أوّلا- التّأليف النّحويّ: كان التّأليف في النّحو أوّل ما عرفته الدّراسات اللّغويّة في الحضارة العربيّة عبر مراحل تطوّرها، ويُعَدُّ كتاب سيبويه (الكتاب) أوّل كتاب وصل إلينا في علم النّحو العربيّ كان صاحبه قد جمع فيه بين أبواب علم النّحو وأبواب علم الصّرف، وضمّنه إلى جانب آرائه، آراء شيخه الخليل، وإليه يُعزَى التّأليف في النّحو العربيّ. "وقد كان من سوء حظ النّحو العربيّ أنْ جاء سيبويه في وقت مبكر جدًّا، لا يتجاوز النّصف الثّاني من القرن الثّاني الهجريّ، إذ نتج عن تفوُّقه وشدَّة إعجاب النّحاة به، أنْ أُصيب التّفكير النّحويّ بالجمود، ودار الجميع في فلك سيبويه، واتّخذوه أساسًا لدراستهم، ولذا لم يطوِّروا هذه الدِّراسة بالقدر الكافي، وتحوّلت كثير من الدّراسات النّحويّة إلى مجرد شروح له أو اختصارات أو تعليقات عليه، أو جمع لشواهده وشرحها. ويكفي دليلا على ما كان لكتاب سيبويه من سحر وإغراء، إطلاقهم عليه اسم (قرآن النّحو). وقول أبي عثمان المازنيّ (249هـ) في تمجيده: (من أراد أن يعمل كتابًا في النّحو بعد كتاب سيبويه فليستحي). وقول أبي العباس المبرِّد (285هـ) لمن أراد أن يقرأ عليه كتاب سيبويه: (هل ركبت البحر؟) تعظيمًا واستصعابًا له. وقول أبي سعيد الحسن السّيرافيّ (386هـ): (وعَمَل كتابَه الّذي لم يَسبِقْه إلى مِثْلِه أحدٌ قَبْلَه، ولم يَلْحَق بِهِ مَنْ بَعْدَه)."[1]

وقد عرف التّأليف النّحويّ بعد كتاب سيبويه في الدّراسات اللّغويّة العربيّة عدّة أنواع من المؤلّفات النّحويّة، كان قد عرفها النّحو العربيّ طيلة مراحل تاريخه، بدءا بالمتون، فالشّروح، فالحواشي ثم التّقريرات، والأماليّ، والمسائل، وانتهاء بالكُتُب التّعلميّة الّتي ظهرت في العصر الحديث:

[1]- أحمد مختار عبد الحميد عمر، البحث اللّغويّ عند العرب، ص124.

1- المتون: المتون (ج) متن، وهو مصطلح يُطلَق عند أهل العلم على مبادئ فن من فنون جمعت في رسائل صغيرة خالية من الاستطراد، والتّفصيل، والشّواهد، والأمثلة، إلا في حدود الضّرورة.[1] وهي بالنّسبة لعلم النّحو تدل على المؤلّفات الّتي جُمِعت فيها قواعد النّحو العربيّ في أبواب نحويّة، على شكل متون منثورة أو منظومة، "ومَتْن الكتابِ: أصله، وهو خلاف الشّرح والحواشي، نصُّه الأصليّ (أضاف بعضَ التّعليقات على هوامش متن الكتاب.)"[2] ومن جملة هذه **المتون النّثريّة** الّتي عرَفها التّأليف في النّحو العربيّ: (الكتاب) لسيبويه (180هـ) و(المقتضب) للمبرّد (285هـ) و(الأصول في النّحو) لابن السّراج (316هـ) و(التّفاحة في النّحو) لأبي جعفر النّحاس (338هـ) و(الجُمَل في النّحو) لأبي القاسم الزّجاجي (340هـ) و(اللّمع في العربيّة) لابن جنّي (392هـ) و(المفصّل في النّحو) للزّمخشري (538هـ) و(الكافية الشّافية في علم العربيّة) لابن الحاجب (646هـ) و(متن الآجرُّومية) لمحمد ابن آجرّوم (723هـ) وكتابي (قَطْر النّدى وبل الصدى) و(مغني اللّبيب عن كتب الأعاريب) لجمال الدّين ابن هشام الأنصاري (761هـ). أما أشهر **المتون النَّظميَّة**، فهي: (الدّرة الألفيّة) لابن معطي (628هـ) و(الخلاصة الألفيّة في علم العربيّة) لابن مالك (672هـ) و(مُلْحَة الإعراب) للحريري (676هـ) و(الدّرة البهيّة نظم الأجروميّة) لشرف الدّين العمريطي (989هـ).

2- شروح المتون: الشّرح عمل يُتَوخى فيه توضيح ما غمض من المتون، وتفصيل ما أُجمِل منها، وهو يتراوح بين الطول والقصر، والسهولة والعسر، وفيه الوجيز والوسيط والبسيط.[3] وهي بالنسبة لعلم النحو تدل على المؤلّفات النّحويّة الّتي تمّ فيها شرح المتون السّابقة، لتقريبها لمريدي النّحو العربيّ، ومن جملة هذه الشّروح الّتي وصلت إلينا، **شروح المتون النَّثريَّة** بما فيها شروح كتاب سيبويه التي منها: (شرح كتاب سيبويه) لأبي سعيد الحسن السّيرافي (368هـ) و(التّعليقة على كتاب سيبويه) لأبي علي الفارسي (377هـ) و(شرح كتاب سيبويه) لأبي الحسن علي بن عيسى الرّماني (384هـ) و(شرح عيون كتاب سيبويه) لهارون بن موسى القرطبيّ (401هـ) و(النّكت في تفسير كتاب سيبويه) لأبي الحجاج يوسف بن سليمان الملقب بالأعلم الشّنتمريّ (476هـ) و(تنقيح الألباب في شرح غوامض الكتاب) لأبي الحسن بن محمد الأندلسي الملقب بابن خروف (606هـ) و(شرح كتاب سيبويه) للقاسم بن

---

[1]- عبدالله عويقل السّلمي "المتون والشّروح والحواشي والتّقريرات في التّأليف النّحويّ" مجلة الأحمديّة، ع4، دب: 1420، ص249.

[2]- أحمد مختار عبد الحميد عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة، ط1. بيروت:2008، عالم الكتب، ج3، ص2065.

[3]- عبدالله عويقل السّلمي "المتون والشّروح والحواشي والتّقريرات في التّأليف النّحويّ" ص249.

علي الأنصاري البطليوسي الشّهير بابن الصّقار (630هـ) و(شرح كتاب سيبويه) لصالح بن محمّد وكذلك (شرح المفصل) لابن يعيش (643هـ) و(شرح قَطْر النّدى وبلّ الصّدى) لابن هشام الأنصاري (761هـ) و(مجيب النِّدا في شرح قطر النَّدا) لعبد الله بن أحمد الفاكهي (972هـ) و(مُغِيث النِّدا في شرح قَطْر النَّدا) لشمس الدين محمد بن أحمد الخطيب الشّربيني (977هـ) و(التّصريح بمضمون التّوضيح) لخالد الأزهريّ المعروف بالوقاد (905هـ).

أمّا أشهر **الشّروح على المتون النَّظميَّة** فهي (شرح ملحة الإعراب) للحريري (676هـ) و(شرح الكافية الشّافية) لرضيّ الدّين الإستراباذي (686هـ) وشروح الألفيّة، بما فيها: (أوضح المسالك إلى أَلْفية ابن مالك) لجمال الدّين ابن هشام (761هـ) و(شرح ابن عقيل على أَلْفية ابن مالك) لابن عقيل (769هـ) و(شرح الأشمونيّ لألفيّة ابن مالك) لنور الدّين الأشموني (900هـ) و(شرح ابن النّاظم على ألفية ابن مالك) لبدر الدّين ابن النّاظم (686هـ) وشرح السُّيوطي على أَلفية ابن مالك المُسمَّى (البهجة المرضية) لجلال الدّين السّيوطي (911هـ).

3- حواشي الشُّروح: الحواشي (ج) حاشية، وهي إيضاحات مطوَّلة دعت إليها ظاهرة انتشار المتون والشّروح، وقد قُصِد منها حلُّ ما يُستغْلَق من الشّرح، وتيسير ما يصعب فيه، واستدراك ما يفوته والتّنبيه على الخطأ، والإضافة النّافعة، وزيادة الأمثلة والشّواهد. ومن أشهر الحواشي النّحويّة: (حاشية الأزهريّ على التّصريح بمضمون التّوضيح) لخالد الأزهريّ (905هـ) و(حاشية الصّبّان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك) لمحمد بن علي الصّبّان (1206هـ) و(حاشية الخضري على شرح ابن عقيل على أَلفية ابن مالك) لمحمد الخضري (1345هـ) و(حاشية ياسين بن زين الدّين الحمصيّ على شرح الفاكهيّ لقَطْر النَّدى وبلّ الصّدى المسمّى مُجِيب النِّدا في شرح قطر النَّدا) لياسين بن زين الدّين الحمصيّ (1061هـ) و(حاشية ياسين الحمصيّ على شرح التّصريح للأزهريّ) لياسين بن زين الدّين الحمصيّ (1061هـ) و(حاشية السِّجاعي على شرح القطر لابن هشام) لأحمد السّجاعي (1197هـ).

4- التّقريرات: هي ما يُسجِّله المدرِّس من تعليمات وملاحظات، على الحاشية في توضيحها للمسائل النّحويّة.[1] ومن بينها تقريرات الأنبابيّ الّتي أهمّها (تقرير الأنبابيّ على حاشية السّجاعيّ على شرح القُطْر) و(تقرير الأنبابيّ على حاشية أبي النّجا على شرح الأزهريّ على الآجروميّة) و(تقرير الأنبابيّ على حاشية الصّبّان) لمحمّد بن محمد بن حسين الأنبابي (1313هـ).

---

[1]- ينظر: محمد بن خالد الفاضل، التّأليف في النّحو، تمّ استرجاعه يوم: 30-10-2016، على الرّابط [http://alkuwarih.com/node/186].

5- الأمالي والمسائل: الأمالي: (ج) أُمْلِيَة، وهي تُطلَق على ما كان يلقيه شيوخ النّحو على تلامذتهم من دروس ومسائل ومحاضرات. وأشهر ما أُلِّف في هذه الأمالي: (أمالي الزّجاجيّ) لأبي القاسم عبد الرّحمن بن إسحاق الزّجاجيّ (337هـ) و(أمالي السُّهيليّ) لأبي القاسم السُّهيلي (581هـ) وهما ليسا خالصين لعلم النّحو باعتبارهما قد جمعا بين النحو واللّغة والحديث والفقه، و(أمالي ابن الشّجريّ) لهبة الله بن الشّجري (542هـ) و(كتاب أمالي ابن الحاجب) لأبي عمرو عثمان بن الحاجب (646هـ). أمّا **المسائل:** فتُطْلَق على مُجْمَل ما تَمَّ تسجيله من فتاوى حول المسائل النّحويّة. وأشهر المسائل النّحويّة (المسائل السّفريّة في النّحو) و(المباحث المرضية المتعلقة بـ (من) الشّرطيّة) لجمال الدّين ابن هشام الأنصاري (761هـ).

6- الكتب التّعليميّة: ظهر في العصر الحديث نوع آخر من المؤلَّفات النّحويّة الّتي تنشد التّيسير وتبسيط القواعد النّحويّة، وهي الكتب التّعليميّة التي من بينها: كتاب (النّحو المصفَّى) لمحمّد عيد، وكتاب (النّحو الوظيفيّ) لعبد العليم إبراهيم، وكتاب (النّحو التّطبيقيّ) لهادي نهر، وكتاب (النّحو الواضح) لعلي الجارم ومصطفى أمين، وكتاب (النّحو الوافي) لعبّاس حسن، وكتاب (التّطبيق النّحويّ) لعبده الرّاجحي وكتاب (جامع الدّروس العربيّة) لمصطفى الغلاييني، وكتاب (نحو اللّغة العربيّة) لمحمد أسعد النّادري...إلخ، ومن خصائص هذا النّوع من المؤلّفات النّحويّة:

- ابتعادها عن التّعليل والاطّراد في شرح المسائل النّحويّة؛
- اعتمادها على الأمثلة التّوضيحيّة والابتعاد عن استخدام الشّواهد في شرح القواعد النحويّة؛
- تقليصها عدد الأبواب النّحويّة في اعتمادها على التّبويب بحسب طبيعة الحركة الإعرابيّة (باب المرفوعات، باب المنصوبات، باب المجرورات) لا الوظيفة النّحويّة (باب الفاعل، باب المفعول، باب الابتداء... إلخ).

2- الصّناعة المعجميّة: عرفت الدّراسة اللّغويّة في الحضارة العربيّة الصّناعة المعجميّة في مرحلة متقدّمة من تاريخها مقارنة بالدّرس النّحويّ، فقد اعتنى علماء التّفسير بجمع غريب القرآن في مصنّفات أو رسائل، وأشهر من عُنِي بذلك ابن عباس (68هـ) الّذي ألّف في الغريب كتابه (غريب القرآن) ثمّ توالى التّألف في هذا النّوع من الموضوعات، فألّف أبو سعيد أبان بن تغلب (141هـ) كذلك كتابه (غريب القرآن) وعبد الله مالك بن أنس بن مالك (179هـ) كتابه (تفسير غريب القرآن) وأبو فيد مؤرّج بن عَمْرو السّدوسي (195هـ) كتابه (غريب القرآن) وغيرها من المصنّفات التي أُلّفت في هذا النّوع من الموضوعات.

وانتقل بعد ذلك التّأليف المعجميّ في النّصف الثّاني من القرن الثّاني الهجري، إلى علماء اللّغة الّذين دعتهم الحاجة إلى جمعها وشرحها، إلى إنشاء هذا النّوع من المؤلّفات الّتي تمّ التّصنيف فيها وفق ثلاثة أنواع من المعاجم: معاجم الألفاظ، ومعاجم المعاني، ومعاجم الأبنيّة. يُعنَى الأوّل منها بشرح معنى اللّفظ، ويعنى الثّاني منها بتحديد اللّفظ المناسب للمعنى، ويعنى الثّالث منها بحصر أبنية اللّغة وشرح ألفاظها[1]:

1- معاجم الألفاظ: يهدف هذا النّوع من المعاجم إلى بيان معاني الألفاظ، من خلال الوقوف على استعمالاتها في كلام العرب، فاللّفظ هنا معلوم لكن المعنى مجهول، وهذا هو ما عليه الحال في أغلب المعاجم العربيّة كالصّحاح للجوهريّ، والقاموس المحيط للفيروز آبادي، ولسان العرب لابن منظور وتاج العروس للزّبيدي، والمصباح المنير للفيومي... إلخ.

ويُعَدُّ (كتاب العين) للخليل بن أحمد الفراهيديّ (175هـ) أوّل معجم* أُلِّفَ في هذا النّوع من المعاجم، وكان الخليل قد اعتمد في **جمع مادّته** على التّقليبات الصّوتيّة، وفي **ترتيب ألفاظه** على حروف الهجاء حسب مخارجها الصّوتيّة، مبتدئا بأوّل حرف وهو العين، منتهيا بآخر حرف وهو الياء*. ثمّ تلاه معجم (البارع في اللّغة) لأبي علي القالي (356هـ) الذي رتّبه كذلك حسب مخارج الحروف، وهو يُعَدُّ أوّل معجم ظهر في الأندلس. وممّن اقتفوا أثر الخليل ونحوا نحوه في التّرتيب والتّبويب، حسب مخارج الحروف، أبو منصور الأزهريّ (370هـ) في معجمه (تهذيب اللّغة) والصّاحب بن عباد (458هـ) في معجمه (المحكم والمحيط الأعظم). أما ابن دريد الأزديّ (321هـ) فقد حاول الخروج على طريقة

---

[1]- المعجم، تم استرجاعه يوم: 04-11-2016، على الرّابط
[http://encyc.kacemb.com/%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B9%D8%AC%D9%85/].

* تُطلَق كلمة (معجم) على كلّ كتاب يضمّ قائمة من مفردات اللّغة مرتّبة ترتيبا منطقيّا، مصحوبة بطريقة نطقها وشرح معانيها. ويُعدّ هو أحمد بن فارس (395هـ) أوّل من سَمَّى معجمه (معجم مقاييس اللّغة) بهذا الاسم.

* رتّب الخليل بن أحمد أبواب معجمه، بحسب مخارجها الأبعد فالأقرب على نحو ما يلي: ع ح هـ خ غ-ق ك-ج ش ض-ص س ز-ط د ت-ظ ذ ث-ر ل ن-ف ب م-و أ ي. وقد جُمِعت في قول النّاظم (ينظر: أحمد مختار عمر، البحث اللّغوي عند العرب، ص189.):

يا سائلي عن حروف العين دونكما ... في رتبة ضمّها وزن وإحصـــــاء
العين والحاء ثم الهاء والخـــــاء ... والغين والقاف ثم الكاف أكفـــاء
والجيم والشين ثم الضاد يتبعهـــا ... صاد وسين وزاي بعـدها طــاء
والدال والتاء ثم الظّاء متّصـــــل ... بالظّاء ذال وثاء بعـــــــدها راء
واللام والنون ثم الفاء والبـــــــاء ... والميم والواو والمهموز واليـــاء

الخليل بن أحمد في التّرتيب والتّبويب في معجمه (جمهرة اللّغة) باتّخاذه التّرتيب الألفبائيّ طريقة لترتيب مادّة معجمه، غير أنّه لم يلتزم بها في جميع أبوابه فقد جمع بين التّرتيب الألفبائيّ، والتّرتيب حسب الأبنيّة في ترتيب مادّة هذا المعجم. وسار على هذا النّهج في الخلط بين التّرتيب الألفبائيّ والتّبويب حسب الأبنية أحمد بن فارس (395هـ) في معجمه (معجم مقاييس اللّغة). أمّا أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهريّ (393هـ) فقد أحدث طريقة في ترتيب معجمه (الصّحاح) خالف فيها ما أُلِّف قبله، فقد اتّبع التّرتيب الألفبائيّ في ترتيب الأبواب، ولكنَّه شذَّ في اتّخاذ طريقة ترتيب الألفاظ داخل الأبواب حَسْبَ الحرف الأخير.

وفي أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السّادس الهجريّين ألّف الزّمخشريّ (538هـ) معجمه (أساس البلاغة) الّذي تفرَّد فيه باتّباع التّرتيب الألفبائي، حيث رتّب الكلمات حسب أوائلها ثمّ ثوانيها فثوالثها، وهي الطّريقة التي انتهجتها المعاجم الحديثة في ترتيب الألفاظ. وتوالى التّأليف في معاجم الألفاظ مستفيدا من تجارب السّابقين في تأليفها، فقد ألَّف ابن منظور (771هـ) معجمه (لسان العرب) مُتَّبعًا فيه طريقة الجوهريّ في صحاحه. وقد سار على منهج الصّحاح واللّسان الفيروزآبادي (817هـ) في كتابه (القاموس المحيط). وقد اعتمد المُرتضَى الزّبيدي (1205هـ) على القاموس المحيط في تأليف معجمه (تاج العروس من جواهر القاموس) وزاد عليه في أنّه تحدّث عن حرف كلّ باب من أبواب معجمه، مبيناً خصائص ذلك الحرف واستعمالاته اللّغويّة.

ولم ينقطع التّأليف في معاجم الألفاظ حتّى الوقت الحاضر، وقد أخذ هذا التّسلسل أشكال المختصرات والشّروح، ومن ذلك ما قام به أبو عبدالله محمد بن أبي بكر الرّازي (1261هـ) من اختصاره لمعجم الصّحاح في كتابه (مختار الصّحاح) وكذلك معجم (المصباح المنير في غريب الشّرح الكبير للرّافعي) لأبي العبّاس أحمد بن محمّد الفيوميّ (770هـ) الّذي يُعدُّ شرحا مختصرا لكتاب (العزيز شرح الوجيز) المعروف بالشّرح الكبير لعبد الكريم بن محمّد الرّافعيّ (623هـ).

وتواصل التّأليف في معاجم الألفاظ في العصر الحديث، فألّف بطرس البستاني (1301هـ-1883م) معجمه (محيط المحيط) الّذي أراد مؤلفه أن يحوي ما في القاموس من مفردات مع زيادات كثيرة أخرى، ولكنه سار على الطريقة الألفبائية وفق أوائل الأصول، مخالفا بذلك القاموس. وألّف بعده سعيد الخوري (1331هـ-1912م) معجمه (أقرب الموارد) الذي اعتمد فيه على القاموس المحيط، إلا أنّه لم يُهمِل جميع كتب اللّغة الّتي سبقته، وجاء ترتيبه على أوائل الأصول أسوة بالمعاجم الحديثة. وألّف كذلك عبد الله البستاني (1349هـ-1930م) معجمه (البستان). وألّف لويس معلوف (1365هـ-

1946م) معجمه (المنجد) وقد سار في ترتيبه على أوائل الأصول، مضيفا إليه كثيرا من الصّور والأشكال، بجانب القسم الخاصّ باللّغة والأدب والأعلام. وألّف أحمد رضا (1372هـ–1953م) معجمه (متن اللّغة) وهو مرتّب ترتيبا ألفبائيّا حسب أوائل الأصول.

وانتقل كذلك التّأليف في معاجم الألفاظ في العصر الحديث، من الجهود الفرديّة إلى الجهود المؤسّساتيّة، فأصدر مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة المعجمان (الوسيط) و(الوجيز) وهما معجمان يسيران على الطّريقة الحديثة في التّرتيب، كما بدأ المجمع بإصدار المعجم الكبير الّذي يُعَدُّ معجما كبيرا شاملا لألفاظ اللّغة العربيّة، قديمها وحديثها، وذلك ضمن عمل موسوعيّ مسهب مُنظَّم.

2- معاجم المعاني: يهدف هذا النّوع من المعاجم إلى بيان الألفاظ المناسبة للمعاني، من خلال الوقوف على مجمل معاني الألفاظ المتّصلة بموضوع واحد، فالمعنى هنا معلوم، لكنّ اللّفظ الدقيق الدالّ عليه هو المجهول. وصاحب هذا النّوع من المعاجم تطوّر الصّناعة المعجميّة في الدّراسات اللّغويّة العربيّة، ولكنَّه أخذ منحى يختلف عن معاجم الألفاظ في ترتيب مادّته؛ حيث اتّخذ طريقة الموضوعات.

وقد نشأ هذا النّوع من المعاجم على شكل كتيبات أو رسائل لغويّة كانت تُألَّف في موضوع من الموضوعات، وأشهر هذه الموضوعات التي أُلِّف فيها هذا النّوع من الرّسائل: موضوع خلق الإنسان وأشهر ما أُلف فيه رسالة (خلق الإنسان) للأصمعيّ (216هـ) و(خلق الإنسان) للزّجاج (310هـ) وموضوع الحيوان، وأشهر ما ألّف فيه، رسائل (الإبل) و(الخيل) و(الشّاء) (الوحوش) للأصمعيّ (216هـ) وموضوع النّبات، وأشهر ما أُلِّف فيه رسالة (النّبات والشّجر) للأصمعيّ (216هـ) ورسالة (النّخل) لأبي حاتم السّجستانيّ (250هـ) ورسالة (النّبات) لأبي حنيفة الدّينوريّ (282هـ) وموضوع الأزمنة، وأشهر ما ألّف فيه (الأزمنة وتلبية الجاهليّة) لقطرب (210هـ) وموضوع السّلاح، وأشهر ما أُلِّف فيه كتاب (السّلاح) لأبي عبيد القاسم بن سلام (224هـ) وموضوع البئر، وأشهر ما أُلِّف فيه كتاب (البئر) لابن الأعرابي (231هـ) وغيرها من الموضوعات الّتي أخذت في تأليفها شكل الكتيّبات أو الرّسائل اللّغويّة.

وتطوّر هذا النّوع من الرّسائل، فأخذ شكل الكتب التي تضمّنت في متنها موضوعات شتّى فصارت تسمى بمعاجم المعاني/ الموضوعات، وأشهر ما أُلِّف في هذا النّوع من المعاجم (الغريب المصنّف) لأبي عبيدة القاسم بن سلام (224هـ) و (كتاب الألفاظ) لابن السّكيت (244هـ) ثم تتابع التّأليف فيه، فألّف عبد الرّحمن بن عيسى الهمذاني (320هـ) كتابه (الألفاظ الكتابيّة) الّذي سار فيه على هدى كتاب ابن السّكيت في التّرتيب الموضوعيّ، مقسماً موضوعاته أبواباً متعدّدة، وألّف قدامة بن جعفر

(337هـ) كتابه (جواهر الألفاظ) وأبو هلال العسكريّ (395هـ) كتابه (التّلخيص). وقد ألّف كذلك في هذا النوع من المعاجم أبو منصور الثّعالبي (429هـ) كتابه (فقه اللّغة وسرّ العربيّة). وقد تَوَّج هذا النّوع من المعاجم ابن سيده الأندلسي (ت458هـ) في كتابه (المُخصَّص) حيث بلغ مرتبة عالية من التّبويب والتّنظيم، والشّمول والاستيعاب، وهو أكبر معاجم المعاني العربيّة حتى الآن، وأغزرها مادّة وأجدرها بحمل اسم معجم المعاني.

3- معاجم الأبنية: يهدف هذا النّوع من المعاجم إلى حصر الألفاظ العربيّة موزعةً على أبنيتها (الأوزان الصرفيّة) فالأبنية هنا هي أساس بناء المعجم، ثم تأتي المفردات تابعةً لهذا البناء أو ذلك. فبناء الثلاثيّ المجرَّد مثلاً ينظم كلَّ الأفعال المجرَّدة، وكذلك الأسماء، وهكذا في الرّباعي والخماسيّ. ومن أشهر هذا النوع من المعاجم (ديوان الأدب) لإسحاق بن إبراهيم الفارابي (ت350هـ).

ويمكن أن نجمل معظم ما أُلِّف في الصّناعة المعجميّة العربيّة على اختلاف أنواعها وطرق تبويبها وترتيبها، في الجدول الآتي[1]:

الاســـــــم	تاريــخ الوفــاة	المعجـــــم	الإصدار
عبدالله بن عباس، رضي الله عنهما.	68هـ	غريب القرآن	687م
أبو سعيد أبان بن تغلب	141هـ	غريب القرآن	758م
الخليل بن أحمد	175هـ	العين	793م
أبو عبدالله مالك بن أنس	179هـ	غريب القرآن	795م
أبو عبيدة القاسم بن سلام	224هـ	الغريب المصنّف	1997م
يعقوب بن إسحاق ابن السكيت	244هـ	كتاب الألفاظ	858م
قدامة بن جعفر	320هـ	جواهر الألفاظ	932م
ابن دريد الأزدي	321هـ	جمهرة اللغة	933م
أبو علي القالي	356هـ	البارع	966م
أبو منصور الأزهري	370هـ	تهذيب اللغة	980م
الصاحب بن عباد	458هـ	المحيط الأعظم	1065م

[1]- المعجم، تم استرجاعه يوم: 04-11-2016، على الرّابط
[http://encyc.kacemb.com/%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B9%D8%AC%D9%85/].

أبو هلال العسكري	394هـ	كتاب التّلخيص	1003م
أبو الحسين أحمد بن فارس	395هـ	مقاييس اللغة	1004م
أبو نصر الجوهري	400هـ	الصِّحاح	1009م
أبو منصور الثعالبي	429هـ	فقه اللغة	1037م
ابن سيده الأندلسي	458هـ	المخصّص	1065م
أبو القاسم محمود الزمخشري	538هـ	أساس البلاغة	1143م
محمد بن أبي بكر الرازي	660هـ	مختار الصحاح	1261م
محمد بن منظور	711هـ	لسان العرب	1311م
أبو العباس الفيومي	770هـ	المصباح المنير	1368م
محمد بن يعقوب الفيروز آبادي	817هـ	القاموس المحيط	1414م
المرتضى الزبيدي	1205هـ	تاج العروس	1790م
بطرس البستاني	1301هـ	محيط المحيط	1882م
سعيد الخوري	1331هـ	أقرب الموارد	1918م
عبد الله البستاني	1349هـ	البستان	1930م
لويس معلوف	1365هـ	المنجد	1945م
أحمد رضا	1372هـ	متن اللغة	1953م
مجمع اللغة العربية بالقاهرة	1375هـ	المعجم الكبير	1955م
مجمع اللغة العربية بالقاهرة	1380هـ	المعجم الوسيط	1960م
المنظمة العربية للتّربية والثقافة والعلوم	1410هـ	المعجم العربي الأساسي	1989م

ثالثا- علم الأصوات: ظهر علم الأصوات في الدّراسات اللّغويّة العربيّة، مختلطا بغيره من الدّراسات اللّغويّة، التي تعرض من خلالها أصحابها إلى علم الأصوات؛ للاستعانة به على تفسير ظواهر لغويّة، فقد تعرَّض المعجميُّون وعلى رأسهم الخليل (175هـ) في مقدّمة كتابه (العين) إلى دراسة الأصوات اللّغويّة في العربية، محدّدا مخارجها الّتي جعلها سبعة عشر مخرجا، معتمدا ترتيبها في مدارج الفَمِ، أساسا لتبويب معجمه وترتيب مادّته. كما تبعه في ذلك ابن دريد (321هـ) في مقدّمة كتابه

(الجمهرة) التي خصّصها كذلك للحديث عن مخارج الأصوات وصفاتها، وما يأتلف منها وما لا يأتلف في كلمة واحدة، ونسبة تواردها في كلام العرب.

وتعرّض النّحاة إلى دراسة علم الأصوات بوصفه مدخلاً لدراسة علم الصّرف؛ للاستعانة به على تفسير العديد من الظّواهر الصّرفيّة: كالحذف، والإعلال، والإبدال، والإدغام، والقلب، حيث تعرّض سيبويه (ت180هـ) في كتابه (الكتاب) ممهدا لباب الإدغام إلى دراسة الأصوات اللّغويّة في العربيّة محدّدا بدقّة مخارجها، وأنواعها من حيث الحسن والقبح، وصفاتها من حيث الجهر والهمس، والشّدة والرّخاوة، والفتح والإطباق. وقد خالف شيخه الخليل في عدّه مخارج الحروف العربيّة ستة عشر مخرجا لا غير، وهو الّذي ذهب إليه جمهور العلماء. كما تعرّض المبرد (285هـ) في كتابه (المقتضب) في باب الإدغام إلى دراسة الأصوات ومخارجها. وكذلك أنهى الزجاج كتابه (الجمل) بحديثه عن الإدغام ومهّد له ببعض الدّراسات الصّوتية. وأنهى الزّمخشريّ (538هـ) كتابه (المفصّل) بالإدغام وقدّم بين يديه دراسة للأصوات. ومن مصادر علم الصرف التي عالجت مباحث صوتية متعددة، كالحذف، والإعلال، والإبدال، الإدغام، والقلب، الشّافية لابن الحاجب (646هـ).

أمّا علماء التّجويد والقراءات فقد اعتنوا بدراسة علم الأصوات عناية تفوق عناية غيرهم؛ حيث لا يخلو كتاب لهم، من كلام عن مخارج الحروف وطريقة نطقها، وقد دفعهم إلى ذلك حرصهم الشّديد على إتقان ترتيل كتاب الله وتجويد نطقه، معتمدين في ذلك على ما جاء في مؤلفات النّحويين واللغويين وعلماء القراءة، من دراستهم للأصوات اللّغويّة، ووضعها في إطار علم جديد، أُطلِق عليه اسم علم التّجويد، بعد ظهور المؤلّفات الأولى فيه خلال القرن الخامس للهجرة، مثل كتاب (الرّعاية لتجويد القراءة) لمكي بن أبي طالب القيسيّ (437هـ) وكتاب (التّحديد في الإتقان والتّجويد) لأبي عمرو عثمان بن سعيد الدّاني (444هـ) و(الموضّح في التّجويد) لعبد الوهاب القرطبيّ (461هـ). "وقد واصل علماء التّجويد أبحاثهم الصّوتية، مستندين في ذلك على دراسة سابقيهم، التي أضافوا إليها خلاصة جهدهم؛ حتى بلغ علم التّجويد منزلة عالية من التّقدّم، في دراسة الأصوات اللّغويّة. وبالرّغم من استناد علماء التّجويد على جهود سابقيهم من علماء العربية وعلماء القراءة، فقد جاء عملهم متميزا، ولا يمكن أن نعدَّه جزءا من تلك الجهود، وإنَّما جاء عملا شاملا للدّرس الصّوتيّ، أما علماء العربيّة فقد عالجوا الموضوع في إطار الدّرس الصّرفيّ وهو أمر تجاوزه علماء التّجويد وذلك بالنظر إلى أصوات اللّغة نظرة أشمل من

ذلك."[1] ومن جملة ما تميَّزت به الدراسات الصوتية عند علم التجويد عن الدراسات الصوتية لعلماء العربية، ما يلي[2]:

1- وصف أعضاء النُّطق.

2- الاستعانة بعلم التَّشريح في تحديد أعضاء النّطق.

3- تخصيص فصل مستقلّ للحديث عن أعضاء النّطق، خلافا لما كان عليه علماء العربيّة الذين تحدثوا عن هذه الأعضاء في حديثهم عن مخارج الأصوات.

4- الاستعانة بالرّسوم التّوضيحيّة في بيان مخارج الحروف وتوزيعها على أعضاء النُّطق.

5- تحديد أعضاء النّطق، ومخارج الأصوات وصفاتها، وكذا الأحكام النّاشئة عن تركيبها، مثل الإدغام والإخفاء، والتّرقيق والتّفخيم، والمدّ والقصر، وغيرها من الموضوعات الصّوتيّة المتعلّقة بقراءة القرآن الكريم.

5- ظهور مصطلحات صوتية جديدة تم اعتمادها في التّعبير عن بعض الصفات الصوتية للحروف كالرّوم، والإشمام، والاختلاس، والإمالة، والتّخفيف، والتّفخيم.

6- جعل التَّجويد على مراتبَ تصف القراءة المستوفية لصفات النّطق العربيّ الفصيح، مراعية في ذلك حسن الصّوت والأداء، والتي من بينها، التَّحقيق، والتّرتيل، والحدر، والتّدوير.

ويُعَدُّ ابن جنّي (392هـ) أوّل من أفرد لعلم الأصوات بحثا مستقلا، وأطلق عليه مصطلحا خاصا به هو علم الأصوات، في كتابه (سرّ صناعة الإعراب) الذي تعرَّض من خلاله إلى ما يلي[3]:

- ذِكْر عدد حروف الهجاء، وترتيبها، وتحديد مخارج (ستة عشر مخرجا)؛

- بيان الصّفات العامَّة للأصوات؛ من حيث الجهر والهمس، والشّدة والرّخاوة، والإطباق والانفتاح، والاستعلاء والاستيفال، وتقسيمها باعتبار الأصليّة والزّيادة والإبدال.

- بيان ما يعرض لهذه الأصوات عند تركيبها من تغيير يؤدي إلى: الحذف، أو الإعلال، أو الإبدال، أو الإدغام.

---

[1]- ينظر: علم الأصوات اللّغويّة والتّجويد، تم استرجاعه يوم: 05-11-2016، على الرّابط [http://alfaseeh.com/vb/showthread.php?t=33321].

[2]- المرجع نفسه.

[3]- ينظر: أحمد مختار عبد الحميد عمر، البحث اللّغويّ عند العرب، ص100-101.

كما يُعَدُّ ابن سينا (428هـ) أوّل طبيب وفيلسوف عربيّ أفرد لعلم الأصوات كتابا مستقلا، درس فيه علم الأصوات بشكل مستفيض، وهذا في رسالته (أسباب حدوث الحروف) التي قسّمها إلى ستة فصول؛ حيث خصّص فيها الفصل الأوّل للحديث عن سبب حدوث الصّوت، وخصّص الفصل الثّاني منها للحديث عن سبب حدوث الحروف وتحديد مخارجها، وخصّص الفصل الثّالث منها لتشريح الحنجرة واللّسان، والفصل الرابع لوصف العملية النطقية للأصوات اللّغويّة في العربيّة، أما الخامس فتحدث فيه عن حروف شبيهة بهذه الحروف، مسموعة في لغات أخرى غير العربيّة، كالسَّين الزّائيّة، والزّاي السّينية، والزّاي الظّائية، والفاء الشّبيهة بالباء ...إلخ. أمّا الفصل السّادس فقد خصّصه للحديث عن كيفية إنتاج هذه الأصوات بحركات غير نطقيّة، كالطّاء الّتي تَحْدُث عن تصفيق اليدين دون انطباق الرّاحتين والقاف التي تُسمَع عن انشقاق الأجسام الرطبة[1].

رابعا- فقه اللّغة: ظهر مصطلح فقه اللّغة في الدّراسات اللّغويّة العربيّة، متأخّرا مقارنة بموضوعاته، فقد تعرّض ابن جنّي (392هـ) في كتابه (الخصائص) إلى موضوعات فقه اللّغة، دون الإشارة إلى هذا المصطلح من قريب أو بعيد، وكان هدفه من تأليف هذا الكتاب، الذي جاء عنوانُه أقربَ إلى وصف القوانين العامّة* الّتي تنتظم وفقها العربيّة من مصطلح فقه اللّغة، هو وضع كتاب على طريق كُتُبِ أصول الفقه، ثمّ ضمّنه مباحث عدَّة تتعلّق بموضوعات فقه اللّغة؛ وفي هذا قال ابن جنّي: "وذلك أنّا لم نر أحدًا من علماء البلدين، تعرَّض لعمل أصول النّحو، على مذهب أصول الكلام والفقه."[2] ومن جملة موضوعات فقه اللّغة الّتي طرقها ابن جني في كتابه (الخصائص) ما يلي:

1- حدّ اللّغة وأصل نشأتها.

2- اختلاف اللّهجات العربيّة.

3- خصائص اللّغة العربية الصّوتية، والصّرفية (كالاشتقاق، والحذف، والإبدال، والإدغام والقلب) والتّركيبية (كالتّقديم والتّأخير) والدّلالية (كالمشترك اللّفظيّ، والتّضاد).

ويُعَدُّ أحمد ابن فارس (395هـ) أوّل من ألف كتابا تضمّن عنوانه مصطلح فقه اللّغة، عالج فيه كذلك موضوعات شتى من هذا العلم، وهو كتاب (الصّاحبي في فقه اللّغة العربيّة، وسُنَن العرب في

---

[1]- ينظر: أحمد مختار عبد الحميد عمر، البحث اللّغويّ عند العرب، ص102.

* يُقصَد بالقوانين العامّة القوانين الّتي تنتظم وفقها اللّغة كالقياس، والاطّراد، والشّذوذ، وعكسها القوانين الخاصّة الّتي تنتظم وفقها الظّواهر اللّغويّة، الّتي تكون موضوعات للعلوم اللّغويّة الأخرى كرفع الفاعل، ونصب المفعول، وجرّ المضاف بالنّسبة لعلم النّحو، والاشتقاق، والتّثنية، والجمع بالنّسبة لعلم الصّرف.

[2]- أبو الفتح عثمان بن جنّي، الخصائص، ط4. القاهرة: دب، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ج1، ص2.

كلامها) "الذي يحمل عنوانه إلى جانب مصطلح فقه اللّغة مصطلحين دخيلين، يُشير الأوّل منها (الصّاحبي) إلى الصّاحب ابن عباد (380هـ) الّذي كان قد أهدى إليه المُؤلِّف هذا الكتاب. أمّا المصطلحان الآخران (فقه اللّغة) و(سنن العرب في كلامها) فيشيران إلى نوعين مختلفين من الدّراسة."[1] وكان هدف ابن فارس من تأليف هذا الكتاب، مخالفا لهدف ابن جني الذي كان معاصرا له فقد ألّف ابن فارس كتابه بهدف خدمة لغة القرآن الكريم، وهو لذلك قسم علوم هذه اللّغة إلى أصل وفرع قائلا: "إنَّ لعلم العرب أصلاً وفرعاً: أمَّا الفرعُ فمعرفة الأسماء والصّفات كقولنا: رجل، وفرس، وطويل، وقصير. وهذا هو الَّذِي يُبدأ بِهِ عند التّعلُّم. وأمَّا الأصلُ فالقولُ عَلَى موضوعِ اللّغة وأوَّليتِها ومنشئِها، ثُمَّ عَلَى رسوم العرب فِي مخاطبتها، وَمَا لَهَا من الافْتِنان تحقيقاً ومجازاً."[2] ومجمل ما تعرّض إليه ابن فارس في كتابه من موضوعات فقه اللّغة، ما يلي:

1- القول في أصل لغة العرب ومنشئها.

2- القول في أفضليّة لغة العرب واتّساعها.

3- القول في اختلاف لغات العرب.

4- القول في أسباب تطوّر دلالة الألفاظ.

5- البحث في بعض خصائص اللّغة العربيّة الصّوتيّة (الحاء، والظّاء) والصّرفيّة (كالاشتقاق) والتّركيبيّة (كالإعراب، وأقسام الكلم العربيّة، والحروف).

6- البحث في الأساليب البلاغيّة للعربيّة، كتنوع أغراض الكلام، والحقيقة والمجاز.

وألّف بعد أحمد ابن فارس أبو منصور الثّعالبي (429هـ) كتابه (فقه اللّغة وسرّ العربيّة) وهو كتاب يتضمَّن في عنوانه مصطلحين، يشير الأوّل منهما إلى جزء ضمنه الثّعالبي معجما للمعاني، جمع فيه الألفاظ المتّصلة بموضوع واحد تحت كلّ باب. أمّا الثّاني فيشير إلى مباحث متفرّقة تتعلّق ببعض أسرار العرب في أساليبهم، ومجاري كلامهم. "وكما كان قد قدّم ابن فارس كتابه إلى الصاحب ابن عباد قدّم كذلك الثّعالبي كتابه إلى الأمير أبي الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالي (436هـ) الذي أفرد جزءا كبيرا من مقدّمة الكتاب لمدحه."[3] كما كان الهدف من تأليف هذا الكتاب هو نفسه الهدف الذي ألّف لأجله أحمد بن فارس كتابه (الصاحبي في فقه اللغة) وهي خدمة لغة النّص القرآني، لفهم أحكامه، فقد قال أبو

---

[1]- ينظر: عبده الرّاجحي، فقه اللّغة في الكتب العربيّة، دط. بيروت: 1972، دار النّهضة العربيّة، ص43.

[2]- أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء، الصّاحبي في فقه اللّغة العربيّة وسُنَنِ العرب في كلامها، ص11.

[3]- عبده الرّاجحي، فقه اللّغة في الكتب العربيّة، ص47.

منصور الثّعالبي في مقدّمة كتابه "إنّ من أحبَّ الله تعالى، أحب رسوله محمداً ﷺ ومن أحبَّ الرسول العربيّ ﷺ أحبَّ العرب، ومن أحبَّ العرب، أحبَّ العربية التي بها نزل أفضل الكتب على أفضل العجم والعرب، ومن أحبَّ العربيّة، عُنيَ بها، وثابر عليها، وصرف هِمَّته إليها، ومن هداه الله للإسلام، وشرح صدره للإيمان، وآتاه حسن سريرة فيه، اعتقد أن محمداً ﷺ خير الرّسل، والإسلام خير الملل، والعرب خير الأمم، والعربيّة خير اللّغات والألسنة. والإقبال على تفهّمها من الدّيانة؛ إذ هي أداة العلم، ومفتاح التَّفُقُه في الدّين، وسبب إصلاح المعاش والمعاد، ثمّ هي لإحراز الفضائل، والاحتواء على المروءة، وسائر أنواع المناقب، كالينبوع للماء، والزّند للنار."[1] ومن جملة ما تعرّض إليه الثّعالبي في كتابه الّذي قسمه إلى قسمين، ما يلي:

1- القسم الأوّل (فقه اللّغة): تضمَّن القسم الأوّل من كتاب (فقه اللغة وسرّ العربيّة) معجما للمعاني، جَمَع فيه الثّعالبي الألفاظ المتّصلة بموضوع واحد تحت كلّ باب، وهو مقسم على ثلاثين بابا وكل باب منها مقسم على عدّة فصول. ابتدأه بباب الكلّيات، وختمه باب خصّصه للحديث عن الفنون المختلفة في الأسماء والأفعال والصّفات. ومجمل ما تضمّنته أبواب هذا المعجم، هو الحديث عن الصفات المتضادة في الأشياء، كأوائلها وأواخرها، وصغائرها وكبائرها، والطول والقصر فيها، واليبس واللّين والقلة والكثرة، وسائر الأحوال المتضادة فيها: كالسِّعة والضيق، والجودة والرّداءة... إلخ.

2- القسم الثّاني (سرّ العربيّة): خصّص الثَّعالبي القسم الثّاني من كتابه (فقه اللّغة وسرّ العربيّة) للكشف عن بعض أسرار العرب في أساليبهم ومجاري كلامهم، مستشهدا عليها بنصوص من القرآن الكريم، في تسعة وتسعين فصلا، ومن جملة هذه الأساليب:

- تقديم المؤخّر وتأخير المقدم؛
- إضافة الاسم إلى الفعل؛
- الاختصاص بعد العموم؛
- إقامة الواحد مُقام الجمع؛
- الجمع يراد به الواحد؛
- المفعول يأتي بلفظ الفاعل؛
- تسمية العرب أبناءها بالشَّنيع من الأسماء؛

---

[1]- عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثّعالبي، فقه اللّغة وسرّ العربيّة، تح: عبد الرزاق المهدي، ط1. إحياء التّراث العربيّ، دب: 2002، ص15.

- في التّصغير؛
- في الاستعارة؛
- في التجنيس؛
- في الطِّباق؛
- في الكناية؛
- .....

وما يُميِّز كتاب الثّعالبي عن كتب سابقيه، أنّه لم يتضمّن في حديثه عن موضوعات فقه اللغة القضايا العامة لهذا العلم، كالحديث عن أصل نشأة اللّغة، وتطوّر اللّهجات العربيّة، وخصائص اللّغة العربيّة، وغيرها من المباحث التي طرقها سابقوه، بما فيها ابن جني وابن فارس. "على أننا نستطيع أن نستخلص من هذا القسم، أنّه أراد أن يكشف بعض الخصائص، أو القوانين التي تتميّز بها العربيّة في أساليبها المختلفة. كما يتّضح من خلال جعله القسم الأول خاصّا بفقه اللغة، أنّه كان يعتبر أن فقه اللّغة يقتصر في دراسته على الألفاظ اللّغويّة، وفهم دلالتها لا غير."[1]

وتوالى التّأليف في هذا العلم في العصر الحديث بعد أنْ تقرّر تدريسه في الجامعات المصريّة ثمّ الجامعات العربيّة، فألّف علي عبد الواحد كتابه (فقه اللّغة) ومحمّد المبارك كتابه (فقه اللّغة: دراسة تحليلية مقارنة للكلمة العربية) وكتابه (فقه اللّغة وخصائص العربيّة) وصبحي الصّالح كتابه (دراسات في فقه اللغة) وخليل يحيى نامي كتابه (دراسات في فقه اللّغة) ويعقوب بكر كتابه (دراسات في فقه اللغة) ورمضان عبد التّواب كتابه (فصول في فقه العربيّة) وعبد الحسين المبارك كتابه (فقه اللّغة) ومحمد أحمد أبو الفرج كتابه (فقه اللغة) ومحمد خضر كتابه (فقه اللّغة) وگــاصد الزّيدي كتابه (فقه اللغة العربيّة) وإميل بديع يعقوب كتابه (فقه اللّغة العربيّة وخصائصها) وعبده الراجحي كتابه (فقه اللّغة في الكتب العربيّة) وإبراهيم السّامرّائي كتابه (فقه اللّغة المقارن) ومحمد الأنطاكي كتابه (فقه اللّغة) وصالح بلعيد كتابه (فقه اللّغة) وغيرها من الكتب التي تمّ تأليفها في هذا العلم.[2]

رابعا- البلاغة العربيّة: نشأت البلاغة العربيّة في أواخر القرن الخامس للهجرة على يد الإمام عبد القاهر الجرجانيّ (471هـــ) الذي يُعدُّ مؤسِّس هذا العلم، من خلال كتابيه (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة) اللّذين تعرض فيهما إلى عدة قضايا تتعلّق بمباحث علم البلاغة بما فيها المعاني والبيان والبديع.

---

[1]- ينظر: عبده الرّاجحي، فقه اللّغة في الكتب العربيّة، ص51.

[2]- ينظر: مشتاق عبّاس معن، المعجم المفصّل في فقه اللّغة، ط1. بيروت: 2001، دار الكتب العلمية، ص17.

وقد مرَّت البلاغة العربيّة في نشأتها بمراحل مختلفة، صاحبت تطوّر الدراسات اللغوية في الحضارة العربيّة، وهي[1]:

1- مرحلة النّشأة: تبدأ هذه المرحلة بكتاب (مجاز القرآن) لأبي عبيدة معمر بن المثنى (210هـ) الذي كان أوسع أهل البصرة علماً باللّغة، والأدب، والنّحو، وأخبار العرب وأيّامها. وسبب تأليفه لهذا الكتاب فيما ترويه كتب الأدب، أنّ الفضل بن الرّبيع وزير الرّشيد، استقدم أبا عبيدة من البصرة لحضور مجلسه، فلما حضر إلى المجلس، سأل إبراهيم بن إسماعيل الكاتب، أبا عبيدة عن قوله تعالى: ﴿ طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ [الصافات: 65]. وإنما يقع الوعد والإيعاد بما قد عُرِف مَثَلُه، وهذا لم يُعرف، فقال أبو عبيدة: إنما كلم الله العرب على قدر كلامهم، أمَا سمعت قول امرئ القيس:

أيقتُلُني والمشرفيُّ مُضاجعي ومسنونةٌ زُرْقٌ كأنيابِ أغوالِ.

وهم لم يروا الغول قط، ولمّا كان أمر الغول يهولهم أَوْعَدُوا به، فاستحسن الفضل ذلك منه واستحسنه السّائل، وأزمع أبو عبيدة عند ذلك أن يضع كتاباً في القرآن لمثل هذا وأشباهه.

وكتاب أبي عبيدة ليس كتاباً بلاغياً، وإنما هو كتاب في التفسير، حيث فسّر فيه الألفاظ القرآنية بما ورد مثلها في كلام العرب، وفي معرض تفسيره لآيات القرآن الكريم، نثر بعض الملاحظات البلاغيّة وأشار إلى بعض مسائلها؛ كالإيجاز، والإطناب، والتّقديم والتّأخير دون تسميةٍ لها، كما أشار إلى خروج بعض الأساليب الإنشائية، عن دلالتها الأصليّة إلى بعض المعاني البلاغية؛ كالأمر، والنّهيّ، والاستفهام كما تحدّث عن الالتفات، والتّشبيه، وتعرّض للمجاز العقليّ من غير تسمية له، وإنّما أشار إلى بعض شواهده الّتي أفاد منها البلاغيون فيما بعد.

وجاء بعد أبي عبيدة الفراءُ (207هـ) الذي كان من أعلم أهل الكوفة بالنّحو، واللّغة، وفنون الأدب ووَضَع كتابه (معاني القرآن) الّذي عالج فيه المسائل الّتي عالجها أبو عبيدة، غير أنّ ثقافته النّحويّة قد ظهرت في كتابه بوضوح، فهو يشرح بعض ألفاظ القرآن، وبعض الأساليب البيانية، والتّراكيب اللّغويّة ويَرُدُّ كلّ ذلك إلى مذاهب العرب. وقد نثر في تضاعيف هذا الكتاب بعض الملاحظات البلاغيّة؛ حيث أشار إلى الإيجاز، وأشار إلى بعض صور الإطناب، وبيّن الغرض البلاغي منها، وتحدّث عن التّقديم والتّأخير، ولاحظ خروج الأمر، والنّهي، والاستفهام عن دلالتها الأصليّة إلى معانٍ بلاغيّة، ووقف عند

---

[1]- ينظر: "التّفكير البلاغيّ عند العرب" تمّ استرجاعه يوم: 20-11-2016، على الرّابط [http://www.entsab.com/vb/////attachment.php?attachmentid=17170&d=14278488].

صور المجاز العقليّ، ومثَّل له من القرآن الكريم وكلام العرب دون تسميةٍ له، كما عرَّف التّشبيه، وبيّن أركانه من المُشبَّه، والمُشبَّه بِه، والأداة، ووجه الشّبه، وعرض للمشاكلة أيضاً دون تسميةٍ لها.

2- مرحلة التّأسيس: تمّ تأسيس البلاغة العربية في هذه المرحلة على يدي الإمام عبد القاهر الجرجاني (471هـ) الذي وضع نظريّتي علم المعاني وعلم البيان في كتابيه (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة) وامتاز عن سابقيه بأنّه جمع ما تفرَّق قبله من علوم البلاغة، بعد أن كانت مبعثرة في كتب اللّغة، والأدب، والنّقد، وإعجاز القرآن، واستطاع بذكائه، وثاقب نظره، وضع قواعد البلاغة، وبناء صرحها على أساس متين من الأصول والقوانين، الّتي استقرت بشكل متكامل في إطار شامل، مُدعِماً ذلك بالشّواهد والأمثلة الكثيرة، الّتي ساقها في بيان عذب وأسلوب بليغ، فلم يكتف عبد القاهر في كتابَيْه بتقعيد القواعد وتقنينها، بل حرص مع ذلك على ضرب الأمثلة حتّى تتّضح فنون البلاغة حقّ الوضوح وتتمثّل في الأذهان خير تمثّل. كما يُعْزَى إليه الفضل في أنه قضى على كثير من الثّنائيات الّتي سيطرت على فكر البلاغيين السّابقين وأبرزها: ثنائية اللّفظ والمعنى، وثنائية التّعبير والجمال.

ويُعَدُّ كلّ من كتابي (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة) مصدرين أساسين لعلم البلاغة، فقد ضمنهما مؤلفهما علماً دقيقاً غزيراً، وبنى بهما للبلاغة صرحاً عالياً، وأصبح بسببهما إماماً عظيماً، كما ظهر فيهما بوضوح اعتماد عبد القاهر على المنهج اللّغويّ في تحليل النّصوص، وذلك من خلال إرسائه لنظرية النّظم، التي أثبتت أنّ القرآن الكريم معجز بنظمه، كما أنه فَهِم معاني النّحو فهماً جديداً لم يقتصر على القواعد التّقليديّة السّطحيّة، المتمثّلة في ضبط أواخر الكلمات؛ بل تعدّاه إلى ربط هذه القواعد بمواقف استعمالها في كلام العرب.

وجاء بعد عبد القاهر الجرجانيّ جارالله محمود بن عمر الزمخشري (538هـ) الذي قام بدراسةِ ما كتبه عبد القاهر في كتابَيْه (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة) واستطاع أن يستنبط ما فيهما من مسائل بلاغية، وتَمثَّلَهُما خير تمثيل، في كتابه (الكشّاف عن حقائق التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل) الذي اهتمّ فيه ببيان الأسرار البلاغيّة في القرآن الكريم، وإظهارِ إعجازه عن طريق بيان وفاء دلالته للمراد، مع مراعاته مقتضيات الأحوال، وكذلك كشف ما فيه من خصائص التّصوير ولطائف التّعبير في البيان القرآنيّ. وعلى الرّغم من أنّ هذا الكتاب يُعَدُّ من كتب التّفسير، فإنّه يُعدُّ في الوقت ذاته من كتب البلاغة العربيّة؛ لكونه جاء مليئا بمسائلها، ولطائفها المتناثرة، داخل آرائه في تفسير آي القرآن الكريم.

3- مرحلة التّقنين والتّقعيد: تبدأ هذه المرحلة بظهور أبي يعقوب يوسف السّكاكي (626هـ) الذي اهتم بالفلسفة والمنطق، وقام بتقنين قواعد البلاغة، مستعيناً في ذلك بقدراته المنطقيّة على التّعليل والتّعريف، والتّفريع، والتّقسيم، وبذلك تحوّلت البلاغة على يديه إلى مجرد قواعدَ وقوانين صيغت في قوالب منطقية جافة، باعدت بينها وبين وظيفتها من إرهاف الحسّ، وإمتاع النّفس، وتربية الذّوق، وتنمية الملكات.

وتعود شهرة السّكاكي إلى القسم الثّالث من كتابه (مفتاح العلوم) الذي خصّصه لعلمي المعاني والبيان، وملحقاتها من الفصاحة والبلاغة، والمحسنات اللّفظيّة والمعنويّة، وقد نال هذا الكتاب شهرة فائقة بين علماء البلاغة، الذين فُتِنوا به إلي حدّ جعلهم ينسون أنفسهم وينكرون ملكاتهم، ولهذا ظلوا قروناً عديدة عاكفين على دراسته، وشرحه، وتلخيصه، ولكأنّه لم يُؤَلَّف في البلاغة كتابٌ غيرُه، فاستأثر باهتمامهم وعنايتهم. وقد أخذ رجال هذه المدرسة وعلماؤها، يعمدون في دراساتهم البلاغيّة على النّظريات، والتّقسيمات، والقواعد، والتّعريفات الّتي أصبحنا نراها شائعة في مصنّفاتهم من الشّروح والحواشي، والتّقارير ونحوها، والّتي صُنِّفت على هدي كتاب السّكاكي والقزويني.

فمن الذين قاموا بشرح (مفتاح العلوم) للسّكاكي عدد كبير من العلماء، منهم قطب الدّين الشّيرازي (710هـ) في كتابه (مفتاح المفتاح) ومظفر الخلخالي (745هـ) في كتابه (شرح المفتاح) والسّيّد الشّريف الجرجانيّ (816هـ) في كتابه (المصباح في شرح المفتاح) وابن كمال باشا (940هـ) في كتابه (تغيير المفتاح للسكاكي).

وممّن عُنُوا بتلخيصه بدر الدّين بن مالك (686هـ) في كتابه (المصباح في المعاني والبيان والبديع) وجلال الدّين محمد بن عبد الرّحمن القزويني (739هـ) في كتابه (تلخيص المفتاح) وعبد الرّحمن الشّيرازي (756هـ) في كتابه (الفوائد الغياثية). ولعلّ أشهر هذه التّلخيصات وأوسعها شهرة بين العلماء في المشرق كتاب (تلخيص المفتاح) للقزويني، وهذا الكتاب بدوره حظي لدى العلماء باهتمام بالغ فمنهم من شرحه، ومنهم من لخّصه، ومنهم من نظمه.

فممّن شرحه بهاء الدّين السّبكي (773هـ) في كتابه (عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح) وابن يعقوب المغربي (1168هـ) في كتابه (مواهب الفتّاح في شرح تلخيص المفتاح) وشمس الدّين محمد بن مظفر الخلخالي (745هـ) في كتابه (مفتاح تلخيص المفتاح) وسعد الدّين التّفتازاني (792هـ) الذي وَضَع له شرحين (المختصر) و(المطوّل). وممّن نظمه شعراً جلال الدّين السّيوطيّ (911هـ) في

كتابه (عقود الجُمُان) وعبد الرّحمن الأخضريّ (953هـ) في كتابه (الجوهر المكنون في الثّلاثة فنون) وغيرهم كثير.

ولا تزال خزائن الكتب والمخطوطات تضم في جنباتها عدداً كبيراً من الكتب الّتي دارت حول شرح (مفتاح العلوم) أو حول كتاب (التّلخيص) للقزويني. فكلّ من جاء بعد السكاكي سار على نهجه ونسج على منواله؛ لأنّها لا تخرج عن كونها ترديدا وتكراراً لمادّته، فهي محاولات قُصِد بها الإيضاح والتبسيط عن طريق الإيجاز والتلخيص. ولا شكّ أنّ هذه الشّروح، والتّلخيصات، والمنظومات، تدل على عناية أصحابها منذ عصر السّكاكي وما بعده، بالمناقشات العلميّة، والمماحكات اللّفظيّة، دون العناية بتربية الذوق، ففقدت البلاغة بذلك هدفها الرّئيس.

سادسا- أصول النّحو[1]: نشأ هذا العلم ملازما للنّحو العربيّ في القرون الأولى لوضعه، غير أنّه قد تأخر في تدوينه مقارنة بعلم النّحو، شأنه في ذلك شأن العلوم الّتي نجد زمنا ليس يسيرا بين تاريخ نشأتها وتاريخ تدوينها، وظهورها كعلوم مستقلة، لها كيانها الخاصّ. فعلم أصول الفقه مثلا، نشأ مع الفقه نفسه، لأنَّه لا يمكن تَصوُّر علم بلا أصول؛ لأنّ الأصول هي الأساس الّذي يُبنَى عليه العلم، إلا أنّ تدوين علم أصول الفقه تأخّر بزمن طويل، حيث تمّ ذلك على يد الإمام الشّافعيّ في رسالته. وكذلك علم أصول النّحو الذي نشأ أيضا مع نشأة النّحو، إلا أنّه لم يدون –على غرار علم أصول الفقه– إلا في القرن الرّابع، على يد أبي الفتح عثمان ابن جني (392هـ) في كتابه (الخصائص). مع الإشارة إلى أنَّ أبا بكر بن السَّرّاج (316هـ) كان قد وضع لكتابه في النّحو، عنوان (أصول النّحو) إلا أنّه لم يقصد بذلك علم أصول النّحو، بل شمل كتابه أبواب النّحو العربيّ، وهو بذلك يُعَدُّ كتابا في النّحو شأنه شأن كتاب سيبويه. وقد نبّه إلى هذا ابن جني، فذكر في الخصائص أنّه قد سبقه إلى هذه التّسمية ابن السّراج ثم علَّق على ذلك بقوله: "فأمّا كتاب أصول أبي بكر، فلم يُلْمِم فيه بما نحن عليه، إلا حرفاً أو حرفين في أوّله."[2]

ويُعَدُّ كتاب الخصائص بهذا أوّلَ كتابٍ يُؤلَّف في هذا العلم، إلا أنّه لا يجوز أن نزعم أن ابن جني هو أوّل من تكلَّم في علم أصول النّحو. وإنّما كان فضله في التّأليف، كفضل الشّافعي في علم أصول

---

[1]– حيدر غضبان محسن الجبوري "نشأة التّأليف في أصول النّحو" تم استرجاعه يوم: 30–10–2016، على الرّابط [http://www.uobabylon.edu.iq/uobColeges/lecture.aspx?fid=8&lcid=24400].

[2]– أبو الفتح عثمان بن جنّي، الخصائص، ج1، ص2.

الفقه. وقد ضمّن ابن جني كتابه هذا أبوابا كثيرة من أصول النّحو، بما فيها: السّماع، والقياس والإجماع، والاستحسان، والعلّة، والأصالة والفرعيّة، وغيرها من مباحث هذا العلم.

وجاء بعد ابن جني أبو البركات الأنباري (577هـ) فألّف كتابا يحمل الاسم والمضمون معا، وهو كتاب (لمع الأدلة في علم أصول النّحو) وقد أخذ في هذا الكتاب أبواب أصول الفقه برمّتها، وحشاها بموضوعاتٍ في أصول النّحو. وتلاه كذلك جلال الدّين السّيوطي (911هـ) الّذي ألّف في أصول النّحو كتابه (الاقتراح في علم أصول النّحو) وقد اعتمد فيه اعتمادا شِبه كليّ على كتابي (الخصائص) و(لمع الأدلّة) رغم أنّه ادَّعى في مقدّمة كتابه الأسبقيّة إلى ذلك. كما ألّف يحيى الشّاوي المغربيّ الجزائريّ (1096هـ) كتابه (ارتقاء السّيادة في أصول النّحو). وقد عُنِي غير واحد بشرح كتاب الاقتراح، وأهم هذه الشّروح: شرح ابن علان الصّديقي (1057هـ) في كتابه (داعي الفلاح لمخبآت الاقتراح) وشرح ابن الطّيب الفاسي (1170هـ) في كتابه (فيض نشر الانشراح من روض طيّ الاقتراح) وشرح محمود فجال في كتابه (الإصباح في شرح الاقتراح) و شرح محمّد رشيد في كتابه (شرح كتاب الاقتراح في أصول النّحو).

وتوالى التّأليف في هذا العلم في العصر الحديث، فألّف محمّد عيد كتابه (أصول النّحو العربيّ) ومحمد خيّر الحلواني كتابه (أصول النّحو العربيّ) ومحمّد خان كتابه (أصول النّحو العربيّ) وسعيد الأفغاني كتابه (في أصول النّحو) وصالح بلعيد كتابه (في أصول النّحو).

تطبيق:

س1- على ماذا يدلُّ تنوّع المؤلّفات النّحويّة في الدّراسات اللّغويّة العربيّة؟

س2- اذكر الفرق بين مؤلّفات النّحو العلميّة ومؤلّفات النّحو التّعليميّة، مع التّمثيل لكلّ نوع منهما؟

س3- لماذا تُعَدُّ الشّروح والتّلخيصات والمنظومات من علامات تراجع الدّرس البلاغيّ؟